

ملاحم الفكر التربوي عند مالك بن نبي

أ.د. الطاهر براهيم / جامعة محمد خيضر بسكرة

أ. عبد اللطيف بكوش / جامعة محمد خيضر بسكرة

الملخص

يتسم المشروع الفكري لمالك بن نبي بطابع الشمولية والتكامل لذلك فإن فكرته عن التربية تشكل زاوية من رؤية فلسفية شاملة حاضنة، ويستوجب التساؤل العلمي والإحاطة بالموضوع التربوي في ذلك المشروع، من زاوية انتسابه مع سواه من المواضيع الأخرى، طالما أنها تمثل موقف مفكر كامل وتحاول المداخلة التصدي للموضوع كما في كتابات مالك بن نبي ولاستظهار رأياه واستكشاف معالم التربية في فكره، إن كمفهوم أو كوسيلة، تشبه التغيير الحضاري الباني للقوة والمناعة والقابل للتجدد ضمن معالم ثابتة، إذ أن ثوابت الفكرة هي المستهدف الرئيسي طالما أنها ملاحم مشكلة في المحصلة النهائية لنظرية عامة، ومن ثم فإن المقتضي المنطقي يستدعي ضبط الكتلة المفاهيمية والقضايا التي يخدمها، كما في فكر مالك بن نبي التربوي، والتي جاءت في كتابات سياقات متنوعة، ويشكل جمعها في أفق واحد مبادأة على ضبط كبرى ما يحتاج منها إلى إبراز وإشارة، تمهيدا لبحوث لاحقة لتعميق المعرفة فيها تفصيلا، وهو مسعى المداخلة الأول، لذلك فإن اعتماد طريقة التحليل بالعودة للنص واتخاذ التأويل تقنية وأداة، من شأنه بناء معرفة ضمن رقعة ترجمة، تقف على المعني الذي تثيره قضايا النص من جهة، والذي يجد دلالاته في الفكرة ذاتها، وفي الواقع الذي تشيد من قراءة مالك بن نبي له.

مقدمة

البحث عن أبعاد الفكر التربوي في مشروع مالك بن نبي، مغامرة علمية مفتوحة من البداية وحتى النهاية، ولذلك فلن هي حققت من التفتيش عن ملاحم التربية في ذلك المشروع ما يشرعن لتساؤل يحظى بالرع اية العلمية ويفتح مجالا للبحث ف إن ذلك تخريج موفق لأن التعامل مع أعمال مالك بن نبي المنشورة التي تمثل خطأ فكريا متميز ومن طابع كلي يسوق الحجة من أي علم بقوة ومهارة، ويضرب المثل بمنطق ما، ويلمح في موقع ويفصل في آخر، بحيث تتفاعل تلك الروافد معا وتلقى الفكرة في أحضان نص متعدد المداخل متفتح على الحقيقية، وينشد ناصيتها في الفلسفة وفي العلم وفي التاريخ، وفي الوقائع، وفي القرآن، ويعرضها بصورة تقبل أكثر من قراءة هو ما يجعل الدراسة مجرد محاولة لا تخرج عن دائرة المبادأة.

إن صورة الخطاب العلمي في كتابات مالك بن نبي يحيل البحث عن مظاهر التفكير التربوي إلى عملية فرز شاقة وغير نهائية، إذ تكوين خلاصة عن الموقف الفكري من خطاب

تلك صورته لا تقتضى فقط مخزوناً معرفياً و لغوياً مناسباً، بل تفرض أكثر من مدخل للتأويل يتجاوز منهج الانطباع ، لذلك و أمام تنوع النص في إثارة مسألة التربية أحياناً كمفهوم أو كأسلوب أو عمليات للتغيير أو كتقافة أحياناً أخرى، يجعل من القضية شذرات ترد في سياقات متعددة ولأهداف متنوعة يجمعهما هدف التغيير الاجتماعي للواقع الإسلامي المتخلف.

ولذلك فإن التعامل مع فكر التربية والتربية والتغيير الاجتماعي ، هي مفردات يأخذ بعضها برقاب بعض، ما يفرض على أي مقارنة احترام هذا الترابط في الوصف والتحليل والتفسير وهو ما استدعى طرق الموضوع على تلك الصورة في هذه المداخلة ، فمن قراءة الخصائص في أبعاد التفكير التربوي ومروراً بمظاهر التربية إلى تبين حدود دور التربية في التغيير الاجتماعي ، يجرى دراسة الموضوع اعتماداً على قراءة تحليلية لبعض كتابات المفكر وبالاستعانة بدراسات أخرى بحسب المقتضى المعرفي والضرورة المنهجية.

أولاً: في أبعاد التفكير التربوي عند مالك بن نبي

الفكر التربوي عند مالك بن نبي ليس مجرد تأمل أكاديمي غائر في خطاب تج ريدي صرف يبحث عن المطلق الذي يتعالى عن كل محسوس في عالم الأشياء، إنما هو تفكير شامل في الظاهرة الحضارية باعتبار أنها تشهد الحالة التي آل إليها المجتمع الإسلامي والتحديات التي ترهن الإقلاع، الذي يؤسس لميلاد مجتمع يمتلك من القوة ما يجعله قادراً على الدخول في دور الحياة المعاصرة، متجاوزاً عقدة الدونية التي هي الهدف الدائم للغارة الاستعمارية آملاً في التمكين للفوقية الغربية.

لذلك فإن فكرة التربية تأخذ طابعها من هذه الخاصية ذات الأبعاد الحضارية، وتدخل ضمن تفكير حيوي نشط يتفاعل مع الأحداث اليومية يتعلّقها بمنطق الفيلسوف ، ويفسرها بعلمية المهندس، فهي من ثمّ فكرة دينامية منتجة وتصدر عن قراءة متفتحة على العلم وعلى الفكر بلا تهيب، الشريء الذي يجعل فرز مظاهر التربية كما في هذا النوع من الفكر عملية جراحية إبداعية لا يصلح أن تلتزم بنمطية تحصر العمل ، في قوالب مدرسية ساكنة، وهو ما يثير عن علمياً لقراءات أخرى طالما أن تلاوين الإنتاج الفكري هي من طابع يسمح للتأويل، من أن يجد رقعة واسعة متحركة.

ورغم أن تخريج مظاهر التفكير التربوي في مشروع مالك بن نبي يستوجب جهداً من البحث عن المعنى الكلي الذي يحمل فكرة عن التربية هنا و أخرى هناك في سُلّقات المتن ، بأسلوب يلمح حيناً و يعرض أو يفسر أو يتشوّف حيناً آخر، ضمن هدف أعم وأهم من عرض

تعريف أو رد جزئي عن مناوشة فكرية استفزازية أو أطروحة تبحث لها عن مريدين يعلنون من شأنها، لعجز في ذاتها من إيفاء المهمة بقوة حجة أو بحجة منطق.

واعتبار لطبيعة التناول ، ولغة التفكير التي توسم الخطاب الفكري عند مالك بن نبي في الشؤون كافة بما فيها الشأن التربوي، يصير وصف و تصنيف ما هو تربوي من غير ما هو لا تربوي أشبه بالمجازفة العلمية، فالتفكير وإن على المستوى الفردي في قضية من أخطر القضايا في المجتمع الإسلامي، هو جهاد تصل حد الفريضة وسبيل للإصلاح الحضاري الشامل، وضمن تلك المعاري يرد التفكير التربوي ويظهر بحسب السياق الذي يجري فيه أو يتجاوز معه أو حتى يتداخل معه في مواقف فكرية جامعة.

و يمكن الإشارة إلى ثلاث مناحي تبدو فيها مواضيع التربية في تفكير مالك بن نبي ، و تأخذ ثلاث صور كبرى تستجيب كل منها لغرض فكرة أكبر تتعلق بالبناء الحضاري المنشود الذي يجعل من الإنسان ركيزته الرئيسة التي لا غنى لجميع شروط أي نهضة عنها.

وهكذا فالمظاهر التربوية في المشروع العلمي عند مالك بن نبي تجيء هدفا كما تأتي كأطاريح سائدة للتحليل بالتجاوز أو بالتضمن، إذ الغاية التي ينشدها المشروع هي الإصلاح ، وإما الوسيلة فهي الفكر، ذلك لأن التخلف الذي لحق بالجماعة الإسلامية أرحى ظلامه على واقع و مستقبل هذه الجماعة بات مطلوبا ، لصدّه على مستوى الفعل فكر استراتيجي شديد الصلة بمصادر الإسلام وبمتغيرات المرحلة ، خصوصا وأن التخلف الذي حل بديار الإسلام شمل جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية ، وكانت معالمه البارزة هي الركود العقلي و الفرقة النفسية، والتحزب الطائفي والانقسام المذهبي ، فهي الموروث الذي يعمل عليه إلى اليوم المد الكولونيالي المعولم، ففي نعت بالغ الأهمية استخلصه "جورج سارتون" في كتاب له بعنوان "الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين" عن ضعف الجماعة الإسلامية يكتب "أن التقهقر في الإسلام لم يكن نتيجة لفقدان قوة مادية و للسيادة السياسية و لا لنقص فيها بل لأن القوة الروحية نفسها ذهبت"⁽¹⁾.

وقد أدرك مالك بن نبي هذه الحقيقة مبكرا على طريقة العالم المدقق والفيلسوف المنظر ، ونتيجة ذلك انصبت جهوده في الكتابة على مس ألة الحضارة ومشكلة النهضة وكلاهما قضية الإنسان الأولى، الذي عليه مسؤولية عظمى هي الأمانة والعمل والبناء والعبادة وعمارة الأرض، وبهذا المعني فلن التفكير يصير فريضة وعادة، إن كان الهدف هو طاعة الله ، ومن ثمة فلن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو في المحصلة النهائية تفكير في مشكلة الحضارة باعتبار أن الصورة الرسالية التي يجب أن تكون عليها الحياة الاجتماعية في الأرض، مطلوب لبلوغها أن تقوم الجماعة الإسلامية على تفاعل ركائزها الإيمان والعمل والعلم لتكون قدوة في الأرض في سائر الأحوال والأزمان.

والتربية هي قضية الإنسان و خاصة له من دون سائر المخلوقات ، ولذلك فليّن التفكير في التربية واجب أن ينهض من فكر مؤطر يرشد إلى رسم فهم الموضوع لا يتطرق إلى جانب على حساب آخر ولا إلى إعلاء احدهما على الآخر وإنما إعلاء للأدمية في صورتها المتكاملة الروحية والمادية والفردية والجماعية والدينية والأخروية ، ولا يكون لفكر معزول من الوحي من قدرة على الوفاء بدور الترشيد للعقل ليقوم بفريضة التفكير في الكون وفي التربية ل ذلك فليّن يتربى الفكر من دروس الوحي هي قاعدة تجعل التفكير في التربية ممكنا على نحو يحقق للحضارة آدميتها ويكسب الإنسان صلاحته في الكون ليبنى ويعمر ويطور نفسه ومحيطه باستمرار وبلا هوادة.

والأفكار في أية أمة هي أعظم ثروة في حياتها إن كانت أمة ناشئة ، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت الأمة عريقة في الفكر المستنير ، وإما الثروة المادية والاكتشافات العلمية والمخترعات فهي دون الأفكار إذ أن الوصول إليها يتوقف على فعالية الأفكار بالأساس، بل إن الاحتفاظ بها يتوقف على الأفكار التي بدورها تعقد على وجود عملية التفكير عند الأمة في واقع حياتها، أي أن يستعمل أفرادها ما يتوفر لهم من معلومات عند الإحساس بالواقع للحكم عليها والمقصود أن يمتلكوا أفكارا يبدعون باستعمالها في الحياة ، فينتج عندهم من تكرار استعمالها بنجاح طريقة تفكير مرتجة⁽²⁾.

إن التربية بوصفها ظاهرة إنسانية تشمل رعاية للعقل والجسم ، للروح والمادة، ولا يصلح تفكير في التربية إلا إذا كان له هو ذاته حظ من التربية ، وهو ما يتحقق بتوطيد صلته بالوحي كما في رسالة الإسلام الخاتمة لجهة الفكرة وأخذ ناصية العلم لناحية التفاعل مع الواقع و يمثل التفكير في التربية عند مالك بن نبي واحدا من النماذج ال تي قامت من دينك التأكيدين إن في فهم التربية، أو في تصور الدور الذي عليها الوفاء به و الإسهام الذي يتعين عليها القيام به في المجتمع بأسره في المستوى المؤسسي واللامؤسسي ، ذلك لأن التغيير مطلب بقاء للمجتمع الإسلامي وضمان للاستمرار وليست التربية سوى تغيير هادف يقصد مسعاه العام إلى إحداث التغيير الايجابي في المستوى الفردي وفي المستوى الاجتماعي، وهي بهذا المعنى تنمي للملكات والمواهب وتحريك لطاقات المجتمع كافة للعودة إلى دورة الحضارة وخروج من دائرة الأفول التي ميزها التخلف، بل وتنمية التخلف كما في وصف "أندري قندر فرنك".

وانطلاقا من هذا التصور فإنه يمكن اعتبار المشروع العلمي لمالك بن نبي مشروعا تربويا بالمعنى الحضاري للتربية لا بالمعنى القاموسي الفني المتداول في علوم التربية، الشيء الذي يسمح ببعض المجاز من وصف مجهوده الفكري بأنه نظرية في التربية طالما أن غايته الكبرى تنشد الكمال للفرد والمجتمع وتؤسس لإستراتيجية نهضة، وتحرض على هبة كبرى

تشمل الفرد والمجتمع و الدولة و المؤسسات والنظم الاجتماعية، و كذلك فليّن مشروعة الفكري هو من طابع تربوي، يستشعر الخطر بوعي ويحدد رؤية لتجاوزه ، إذ يكتب في " تأملات " : "إن ساعة الخطر تدق مرتين: فهي تدق في اللحظة التي يفقد فيها المجتمع المبررات الـ التي أطلقت طاقاته و وجدت جهوده و تدق في اللحظة التي يبدأ فيها استعادة مبرراته المفقودة أو يبحث عن مبررات جديدة"⁽³⁾.

ثانيا: ملامح مفهوم التربية في المشروع الفكري عند مالك بن نبي

مفهوم التربية واسع و يدور في حلقة تمثل منظورا حضاريا بعيد الأهداف و عميق الامتداد إلى حوادث التاريخ و ظواهر الاجتماع والاقتصاد والسياسة في عالم يتعايش فيه المسلم من "طنجة" إلى "جاكرتا" حياة تحكمها متغيرات مهيمنة تعود إلى الطابع الكولونيالي للعلاقات الدولية، و متغيرات تابعة تمثلها القابلية الذاتية للاستعمار، لذلك فإن التفكير في التربية هو تفكير بالتربية يجعل ممكنا بناء استراتيجيات العودة إلى صراغة التاريخ أكثر من طموح أو مثالية، بل صورة عملية تقبل الانجاز إن تهيأت لها شروط النهضة وحشدت لها العزائم والطاقات والموارد التي على رأسها الإنسان.

إن معنى التربية يتداخل مع مفهوم الثقافة حتى يظهر وكأنهما أختان رضيعتان ، إذ هما يشملان كل ماله علاقة بتكوين الإنسان فكريا وروحيا وانفعاليا و عمليا⁽⁴⁾، وفي هذه النظرة الموسوعية للتربية ما يعكس فلسفة متميزة إلى التربية كفكرة و كوجود اجتماعي واجب تهيئته ليكون مظهرا عمليا للثقافة و انعكاسا للفعل التربوي الاجتماعي بلوغا إلى مرحلة النجاح الذي يمثل الخلاص النفسي من الدونية كشعور فردي وجمعي باعتباره أساس الإقلاع في النهضة المرتقبة، و هي من دائرة الممكن القابل المنال بعيدا عن القنوط الجبري ، و هكذا فإن تكون الثقافة تربية و أن تكون التربية ثقافة على صور ما هي فكرة متميزة ترسم التداخل بين المفهومين على نحو متميز، و تؤسس لخلفية فكرية تلتزم مرجعية إسلامية شديدة الصلة بثقافة صاحب الفكرة و مفهوميته، فهو يضع من الواجب ذي الأولوية أن تعود الثقافة إلى مستواه الحقيقي، و لذلك وجب أن نجدّها لكي نفهمها، و من ثمة تكون نظام تربويا تطبيقيا ينشر في المجتمع بأسره⁽⁵⁾.

وفي هذه الدعوة ما يؤكد على أن قاعدة العمل التربوي هي الثقافة بجميع جوانبها المادية و اللامادية ذات الصلة بالحياة الاجتماعية ، فنهضة الثقافة لن تكون نتائجها إلا نهضة تربوية ، كما أن تنمية التربية كنظام اجتماعي هي تنمية للثقافة والمجتمع ، هذا يؤكد أن الثقافة مظهر للتربية وان التربية هي الأخرى مظهر للثقافة ، و بالتالي فليّن الذي إحداها يصيب الجسد كله تقدما كان أو تخلفا، وفي مؤلفه " مشكلة الثقافة " توضيح للتداخل بين المفهومين إذ يلاحظ أن "

الثقافة هي التي ترسم خط التربية والتربية هي التي تنمي الثقافة⁽⁶⁾، و نفهم من ذلك أن الثقافة كتربية عند مالك بن نبي هي عمليات التنقيف بمختلف أساليبها، و في كل الدوائر التي تحصل فيها من غير أن تنقيد بمؤسسات التعليم والتربية والتكوين كما في عرف بعض الكتاب والدارسين، و هذا الدور هو الذي يجعل من الثقافة تربية على أوسع نطاق، و لذلك يصفها بأنها منهج تربوي يقوم على التوليف السيكولوجي لمكونات الثقافة ، و تجد تنقيدها اعتدادا بهذا المبدأ في تنظيم تلك العناصر الثقافية لتشكيل كل منسجم لتتولى دورها في التغيير المنشود⁽⁷⁾.

ولذلك فلن تصور مالك بن نبي للتربية يذهب إلى اعتبارها "عملية تنقيف متواصل تقوم بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد أي في بنية إنسان ما بعد الموحدين أو ما بعد الحضارة"⁽⁸⁾. وينبني هذا التصور الكلي في ملمح ه العام من القرآن لكن علي منهج خاص فالقرآن أهم بنية يقوم عليها الفكر الإسلامي، و يذهب في تأكيد هذا المعني أبو إسحاق الشاطبي إلى القول "أن القرآن الكريم هو كل الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة و آية الرسالة ونور الأبصار والبصائر وانه لا طريق إلى الله سواه ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه... وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللاحق بأهلها أن يتخذ سميره وأنسيه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا لا اقتصارا على احدهما فيوشك أن يفوز بالبيعة وان يظفر ب الطلبة ويجد نفسه من السابقين..."⁽⁹⁾.

وثابت من طرح مفهوم التربية أن مالك بن نبي قد تشرب من منهج القرآن وهو منهج تربوي فريد، وكان من ذلك الأثر في تفكيره في التربية إذ لم يقتصر معناه على الفهم الفني كما في الدراسات التربوية التي تأخذ بالاتجاه الامبريقي أو سواه، بل يتجاوزها حينما يجعل منها قضية الإنسان في الكون بوصفه مكلفه وقضية الإنسان في المجتمع أين تتحول إلى معاني الثقافة التي تنتقل كموروث من جيل إلى آخر وتنتشر في الأرض من مجتمع لآخر، ولا يكون انتقال ونشر الثقافة التي تأخذ معانيها ومقاصدها من ذلك التصور إلا عبادة وبناء للحضارة و إصلاحا لها فسد في المجتمع، وتغيير نحو لها هو نافع، ولذلك تظهر الفكرة التربوية في جميع تفكير مالك بن نبي الذي يدور في تلك الجوانب إن بغرض الإيضاح أو الإصلاح أو التغيير أو النهضة، وهي قضايا تربوية تتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بمسألة الحضارة ومشكلة الثقافة.

هكذا يصير القول ب أن التربية هي سوق عناصر الثقافة لتشكيل عدسة الرؤية في المستوى الفردي فينسجم التصور الجمعي ويتناغم مع المشترك الثقافي ليشكل تفاعلا اجتماعيا لا يخرج عن دائرة مفهوم عبادة الله ومهمة الاستخلاف في الأرض، ونجاح العملية التربوية بهذا

المعني وفي المستويات الفردية والجمعية لا يغفل الواقع لأنه الإطار الحاضن للفعل التربوي أو الثقافي والبيئة التي تعكس آثاره ومظاهره ، نجاحاته وإخفاقاته، ويؤكد " أسعد السحمراني " مستخلصا من قراءة لفكر مالك بن نبي أن الثقافة مسئولة عن التربية، وبالتالي فعلي التربية أن تلتزم بقواعد الثقافة التي تنفذ في حياة الجماعة لتشكل وجود فكاريا هو الإطار الناجح في بناء الإنسان انطلاقا من تغييره لذاته⁽¹⁰⁾.

ولا يقع هذا التصور بعيدا عن ما يقرره أهل العلم بشأن مفهوم التربية فهي تعني ما يكتسبه الإنسان جراء تأثيرات عناصر الحياة التي يتفاعل معها ، وسواء تلقاها بصورة مقصودة أو غير مقصودة و هذا يجعل من مفهوم عام يتسع إلى جميع عناصر البيئة التي يعيش فيها الإنسان و إلى جميع مراحل عمره الشيء الذي يجعلها على ترفع وثيق الصلة بترفع خبرات الحياة ذاتها⁽¹¹⁾.

وتماشيا مع ذلك المنظور فإن التعليم لا يمثل سوى الجزء المنظم من التربية ، و يكون عادة هو المظهر لها، حيث يتم في أوقات ومؤسسات محددة يتولى المهمة فيه أناسا تم إعدادهم وتأهيلهم لتدريس العلوم والمعارف، و ليس التربية بهذه المفهوم حيث أن العلم لا يهتم إلا بالصلات المتعلقة بالمفاهيم والأشياء، و انه بالتالي عملية منتهية عند انتهاء من تشكيل الأشياء ومعرفتها كما في موقف مالك بن نبي⁽¹²⁾، هكذا يمثل العلم جانبا واحدا من برنامج التربية للثقافة وهو جانب التخصص المعني بإعداد الكفاءات العلمية، وعليه فإن تعليم العلوم هو مجرد عملية فنية تدور في مقتضى بيداغوجيا التربية النظامية⁽¹³⁾، وواضح حينئذ أن التربية تمس جميع جوانب الحياة بما فيها المؤسسات النظامية لأنها تعبر عن الإطار الثقافي المرجعي للتربية التي تتمظهر في عمليات اجتماعية عديدة ومتنوعة ، تتخذ أسلوب التنقيف والتطبيع والتحسيس والتعليمية والإصلاح والتغيير وما كان في معناها من أساليب أخرى ضمن معنى شامل عبر عنه الطيب برغوثي بالقول : " ... نعتبر الفعل التربوي فعلا حاسما يشرط عملية التجديد الحضاري برمتها....يمتد الفعل التربوي ليستوعب كل الوسائط الثقافية والاجتماعية والسياسية التي من شأنها أن تؤثر بطريقة أو بأخرى في عملية التكيف الفكري والروحي والسلوكي للفرد و المجتمع ، مع الوظيفة الوجودية للإنسان بصفة عامة ومع الوظيفة الحضارية المتميزة للأمة خاصة"⁽¹⁴⁾.

وبهذا يكون إعداد الفرد في شروط اجتماعية و في ضوء خصائص الحضارة ضمانا مادية و معنوية لتنمية شخصية الفرد كتحقيق أهداف إقامة و ترقية الحضارة الحاضرة ، والحضارة في فكر مالك بن نبي "مجموعة من العلاقات بين المجال البيولوجي حيث ينشأ ويتقوى هيكلها و بين المجال الفكري حيث تولد وتتمو روحها..."⁽¹⁵⁾، ويفيد هذا الطرح في أن التربية

عملية حضارية ضمن معادلة تتشكل من الإنسان والتراب والوقت ، وأن العامل الذي يؤثر في مزج المكونات هو الفكرة الدينية⁽¹⁶⁾.

ومن مظاهر تصور مفهوم التربية ما يكون في الأهداف من ماهيات حضارية التي هي على الدوام منتوجا غير حيادي لأنها روح لا مجرد هيكل ، فإذا كانت التربية انتقال وانتشار للثقافة بهدف تشكيل واقع جديد يوفر للناس جميع الضمانات المادية والمعنوية التي تدفع باتجاه تحقيق نموهم والتعبير عن أنفسهم و إبراز قدراتهم، فلن هدف التربية هو واقع اجتماعي لم يوجد بعد، و يتولى التفكير رسم معالمه والصورة التي يكون عليها، وذلك من خلال فلسفة في التغيير تؤهل تحقيقه لان التغيير الاجتماعي الذي ينشده مالك بن نبي هو عملية داخلية تاريخية متدرجة ومتواصلة تنطلق من نقطة الإقلاع الحضاري التي يشهدها الواقع المعيش بما يحمله من وهن وتخلف، ويقوم دور التربية في المقام الأول بالعملية التثقيفية في هذه المرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع وما تتسم به من خصائص نفسية واجتماعية⁽¹⁷⁾.

وهكذا فلن هدف التربية لا يخرج عن فلك تحقيق النهضة التي يعرفها مالك بن نبي بأنها: "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه.... أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه"⁽¹⁸⁾، وفي هذا التوجه ما يشير إلى تأكيدين يذهب الأول إلى إناطة مهمة التغيير نحو واقع اجتماعي جديد قادر على كفل شروط النهضة الدائمة للفرد والمجتمع و هي بهذا المعنى لا تكون إلا وظيفة جميع النظم الاجتماعية، أما التأكيد الثاني هو أن هدف التربية لا يتوقف عند بلوغ تشكيل التغيير المنشود إنما بالمحافظة عليه والعمل على استمراره لحفظه من النكوص أو التراجع، لذلك يؤكد مالك بن نبي على التجديد المستمر للحوافز و المبررات للإبقاء على منجزات التغيير الحضاري لان حياة الحضارة نفسها مرهونة باتصافها بحركة دعوية، لأن القانون الفيزيائي يقول الحركة هي التي تؤدي إلى أسبابها"⁽¹⁹⁾.

ثالثا: حدود دور التربية في التغيير الاجتماعي

يمثل الإنسان مركز فكرة عملية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، إذ التربية تأخذ معني النهاية و التنشئة الاجتماعي - الثقافي، فهي كتنمية فعل واع هادف إلى بلوغ ما ينشده الفرد والمجتمع، وهي كتنشئة عملية تثقيف مستمرة تنقل و تنتشر الأفكار والقيم والمعتقدات مشكلة بذلك الإطار المرجعي للتفاعل الاجتماعي، فإذا كان العامل الديني هو القاعدة التي تنبثق عنها القيم الموجهة للإنسان فردا كان أو جماعة، كان ذلك التغيير الحضاري المنشود الذي يعيد الإنسان في المجتمع الإسلامي إلى دوره الحضاري، بل والحفاظ على جميع التقدم الذي يحصل

في جميع الوجوه المعنوية و العملية للحياة الاجتماعية و تلمين الاستمرارية له. هكذا فان الإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية لمعادلة الحضارة (إنسان + تراب + وقت = حضارة) ، ذلك لان " التراب والوقت لا يقومان بأي تحويل اجتماعي" (20).

وفي هذا الطرح ما يبرر أهمية الدور المنوط بالتربية في أي تغيير اجتماعي إذ أن التغيير الاجتماعي يستدعي التربية بالطبيعة ، ولذلك فلن التغيير يشترك مع التربية في أي دراسة طالما أن الأمر يتعلق بالإنسان مركز أي تربية باعتبارها تغيير ، وأي تغيير اجتماعي باعتباره عملية تربوية على مستوى واسع. وعليه فأينما كان تغيير كانت التربية وأينما وجدت التربية وجد التغيير ، إذ العلاقة بينهما تقوم على التلازم في الحضور والتكامل في الحصول.

ويظهر من سياق التحليل أن التغيير هو المستهدف من الفعل التربوي وهو موضوع التربية في حين يجعل التغيير من التربية وسيلة ومنه ج (21)، و على أية حال فان التغيير لن يكون إلا عملية تربوية تأخذ فعاليتها من العلاقة الروحية بالدين و من العلاقة الاجتماعية، إذ كلما كانت الثانية على نحو الأولى ارتقت الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية ، لذلك يجعل مالك بن نبي موقفا مفاده أن المشكلة ليست في أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها و إنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية و تأثيرها الاجتماعي، " مشكلتنا ليست أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة (22).

وتساهم التربية في صورها الأكثر شيوعا ، وعبر ظواهر نشطة في تحريك الواقع الاجتماعي من حالة الركود إلى حالات الفعل والدينامية ومثل هكذا مساهمة تتجاوز مظاهرها الرسمية كما هو جار في المدرسة وسواها من مؤسسات التعليم، ولا ينحصر دورها في عمليات محددة بالزمان والمكان أو في م ساعي جزئية، فهي كل من الأفكار والممارسات المتحركة غايتها تحقيق نقلة ثقافية تعم الإطار الإنساني للحياة لتجعله قادرا على الإقلاع الحضاري، وتجاوز مرحلة الضعف والأفول ،لأن حل المشكلات يستدعي عند مالك بن نبي أن يتحدد من قراءة متغيرات المرحلة التاريخية ويقول مبينا "تحتم علينا في حل المشكلات الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وان ندرك أوضاعنا وما يعترضها من عوامل الانحطاط وما تتطوي عليه من أسباب التقدم، وعليه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج ومغفلا مكان أمته ومركزها، بل يجب أن تتسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطوته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب فان ذلك تضييع للجهد ومضاعفة للداء ، إن كل تقليد في هذا الميدان جهل أو انتحار" (23).

ويتضح من هذا الموقف محور دور التربية في أي نهضة مرتقبة والتربية التي تدفع باتجاه التغيير تشمل الفرد والمجتمع، وتقوم على تقدير للمرحلة التي تمر بها الجماعة بعيدا عن

موضة التقليد ، فأولوية التربية في كل تغيير قاعدة ، لأن الإنسان الفاقد لروح التغيير لقيم الفعالية وإرادة التغيير فلن مشكلته في نفسه، فهي بالتالي بحاجة إلى صياغة جديدة تحرك الإرادة وتفعّل القيم و تشييع روح التغيير هكذا يستخلص مالك بن نبي أن مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم ما هي إلا مشكلة تربوية بالدرجة الأولى.

والمشكلة التربوية هي مشكلة الإنسان أولاً، ومن ثمّ فلن إعداده يتطلب إعادة الروح و الدفع السلوكي الذي يهيئه للإصلاح وخوض التغيير أي الانتقال إلى حالة تربوية ايجابية فعّالة والخروج من دائرة السلبية والشعور بالضعف والنقص، فأشاعة هذه الحالة التربوية الايجابية تستدعي تفكيراً يستنهضها ويتابعها لتخليق شروط النهضة ، ومن ثمّ العمل على تنشيطها باستمرار، وعلى التربية عندئذ أن تضع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب لإيجاد الحركة وتمكيني التغيير الحضاري من الطاقة الروحية التي تستوجبها حركة التغيير، ولكي تكون التربية قادرة على قيادة التغيير الاجتماعي وفي استحداث بديل اجتماعي وثقافي يحل محل الوضع القائم الموسوم بالتخلف، أي الخروج من حالة السكونية والجمود إلى حالة الحركة ، وجب أن تكون إستراتيجية تقوم على:

- معرفة معوقات التغيير ومن ثم العمل على إزالتها وهي العملية التي يسميها مالك بن نبي : التجديد السلبي وهو إحداث القطيعة مع المعوقات المتعلقة ب الموروث الثقافي والرواسب الماضية.

- معرفة عوامل التغيير والعمل على تمكينها وترسيخها وهو التجديد الاجتماعي أي تقوية الثقافة بأفكار جديدة حية في سبيل المستقبل واعد⁽²⁴⁾.

إن عملية التجديد هي تغيير استراتيجي وسواء كان قطيعة مع موروث لم تعد له وظيفة بانية للقوة أو تفعيل لعوامل الحركة في كل اتجاهات التغيير، فلن استنهاض عوامل التغيير قضية إنسان وعليه تحتل مكاناً هاماً في مشروع النهضة عند مالك بن نبي فهي حيناً منهاج وفي حين آخر هي عمليات تثقيف أو تطبيع وهي بكل تلك المعاني تهدف إلى حشد الطاقات وتفعيل الإمكانيات لإخراج الجماعة الإسلامية من هامش الحياة الحيّة إلى حركة الحياة المتجددة المنتجة، ويكاد يكون هذا الهدف هو هدف المشروع ال فكري لمالك بن نبي و هو ما يجعل وصفه بأنه مشروع تربوي حضاري مقبولا في حدود عالية.

الخلاصة

فكرة التربية عند مالك بن نبي تمتد إلى الحضارة والثقافة والتاريخ ، وإلى العلم والفلسفة ولكنها في كل ذلك لا تغفل الوحي ، و هي فكرة من موقف نظري شامل لمفكر عاش هموم المجتمع الإسلامي و تشرب النتائج بشكل مباشر جراء النكسة التي حلت به كحمل من رصاص على حدود وصف حمدان خوجة.

و لذلك فلن تصوره للتربية لم يكن ميكروسكوبي الطابع بل حضاري المعني والهدف ،
فليس التربية بالعملية الفنية المحدودة لكنها الثقافة والتغيير والتطبيع وسواها من ألوان العمل
الاجتماعي الذي يستهدف تخليق إطار ثقافي في سبيل التجديد الذي يعيد الجماعة الإسلامية التي
تولى دورها في الأرض الذي أنيط بها لحظة رضي الله بالإسلام ديناً ، و لهذا الهدف يضع على
التربية مهمة انجاز دور عظيم يتجاوز مفهوم التعليم المدرسي كما هو متداول في قواميس علوم
التربية من غير أن يلغى أهميته لأنه بمنطق الضرورة الحضارية يصير ب إستشراك أو
باستدخال من التربية البانية للحركة في مقابل السكونية .

الهوامش :

- (1) محمد البهي، الفكر الإسلامي في تطوره، ط 1، دار الفكر بيروت 1971 ص 32
- (2) محمود الخالدي التفكير بداية الطريق إلى نهضة الأمة شركة شهاب الجزائر 1989 ص 29-30
- (3) مالك بن نبي، تأملات ط 4 — دار الفكر ، دمشق ، ص 43
- (4) عبد المجيد عمر النجار، عوامل الشهود الحضاري دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت 1999، ص 289
- (5) مالك بن نبي مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق 1994، ص 76
- (6) المرجع السابق ص 43.
- (7) المرجع السابق ص 62.
- (8) محمد البغدادي، التربية والحضارة بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارية في تصور مالك بن نبي، عالم الفكر، 2006 ص 217.
- (9) الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي ج 3، ص 246، نقلا عن: محمد دراجي معالم منهج حضاري
في تفسير القرآن الكريم عند الأستاذ مالك بن نبي ومحمد الغزالي، ط1، دار البلاغ، الجزائر 2002 ص 10.
- (10) اسعد السحمراني ، مالك بن نبي مفكر إصلاحيا ، ط2، بيروت دار النفائس 1986 ص 219.
- (11) سعيد إسماعيل علي ، فقه التربية، ط1، دار الفكر العربي ، القاهرة، 2001 ص 32.
- (12) مالك بن نبي ، تأملات مرجع سابق ص 145-146.
- (13) محمد البغدادي، التربية والحضارة مرجع سابق ص 225..
- (14) الطيب برغوثي مدخل إلى سنن السيرورة والاستخفاف في قراءة في سنن التغيير الاجتماعي ط1، الجزائر، دار قرطبة 2004 ص 101..
- (15) شافية صديق الجهاد الفكري الفردي، دار قرطبة، ط 1، الجزائر 2006 ، ص 79.
- (16) شافية صديق ، المرجع السابق ص 79.
- (17) محمد بغدادي التربية والحضارة مرجع سابق ص 251.
- (18) شافية صديق الجهاد الفكري الفردي مرجع سابق ص 80.
- (19) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع فكر العلاقات الاجتماعية، تر/ عبد الصبور شاهين دار الفكر 2002م، ص 20.
- (20) مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، تر/ الطيب الشريف ط2 دمشق. دار الفكر، 2000، ص 75.
- (21) محمد بغدادي، التربية والحضارة ، مرجع سابق ص 148.
- (22) شافية صديق الجهاد الفرد مرجع سابق ص 89.
- (23) مالك بن نبي ، شروط النهضة تر: عمر كامل مستقاوي وعبد الصبور شاهين ط 4 ، دمشق، دار الفكر، 1987، ص 27-28.
- (24) مالك بن نبي مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصبور شاهين ط 4 دار الفكر دمشق 1984 ص 71.